بسم الله الرحمن الرحيم

الأحد 27/10/2013 الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال

سلسلة أبواب الفرج

لماذا يتأخر نصر المؤمنين؟

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة، وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً وعملاً متقبلاً يا أكرم الأكرمين. أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه. نسألك علم الخائفين منك، وخوف العالمين بك وبعد:

بدأنا في سلسلة دروس بعنوان **أبواب الفرج** سائلين الله تعالى أن يعجِّل لنا بالفرج وأن يجعله محفوفاً بألطافه.

سبق معنا حديثٌ بعنوان **لماذا يقع العباد في الشدائد**، وعنوان درس اليوم **لماذا يتأخر نصر المؤمنين؟** لماذا لا ينصر الله دينه من أول يوم؟ لماذا الحق لا يعلو من أول لمحة؟ لماذا -أحياناً- نرى الضلال والباطل يعلو ويسمو والخطأ هو الذي ينتصر؟!

صحيح أن العاقبة للمؤمنين لكن حتى يصل المؤمنون إلى العاقبة فستمر بهم فترات يخسرون وينكسرون وها هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو أفضل خلق الله تعالى بلا ريب ومعه خير جيل مر على هذه الأرض.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُوْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**» [البخاري ومسلم].

ها هم يخسرون في غزوة أحد وينكسرون ويقتل منهم العدد الكبير ويجرح باقي الجيش ويشاع أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد قتل حتى قال أبو سفيان يومها -قبل إسلامه- أُعْلُ هُبَلْ، وتغنت المشركات ورقصن، وأكلن كبد حمزة، وبُقرت البطون، وقُطعت الآذان، وبُترت الأنوف... مع أنهم جيل حق وإيمان وأهل صواب وخير فلماذا يتأخر نصر المؤمنين؟!

مَرَّ معي تحليل قيِّم لابن القيم الجوزية في كتابه [زاد المعاد في هدي خير العباد] يذكر فيه لماذا انكسر المسلمون يوم أُحد، وما الحكمة والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد منها:

1- ((أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة ويُدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائماً دخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره...)).

لو أن المسلمون كانوا دائماً يحصلون المغانم المادية والعلمية والصحية والسياسية والعسكرية فسيدخل في صفوف المؤمنين المنافقون، لأن هذا الحزب فيه كل المميزات فيدخلون الدين بهدف أخذ منصب وظيفي ومال وامتيازات، فإذا كان ذلك لم يمتز أحد عن غيره.

لكن جرت عادة الله في رسله عامة أنهم ينتصرون مرة وينكسرون أخرى حتى لا يبقى معهم إلا الصادقون، وكم من مرة قال أناس نحن مؤمنون حتى إذا خضعوا لأول هزة وأول غربال كفروا وفجروا ولعلهم شتموا الدين وألحدوا بالإله بحجة لو كان موجوداً لفعل شيئاً.

فلا ينكشف أصحاب الإيمان الضعيف إلا عند الهزيمة والانكسار وعند القلة ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: 37]، وهذه السنة معروفة عند العقلاء في هذه الأرض مؤمنهم وغير مؤمنهم.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ: **((أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّأْمِ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ، فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا، فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ. فَوَاللَّهِ لَوْلاَ الحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ... قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ...))** [البخاري].

2- يتم ابن القيم بقوله: **((...ومنها: استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، وفيما يحبون وما يكرهون، وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون فهم عبيده حقاً، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية)).**

أحياناً تعطي ابنك مئة ليرة فيُقبّل يدك ويدعو لك، وإذا أعطيته في المرة الثانية أكثر يكثر الثناء والإطراء حتى إذا ما صرخت به صوتاً أرعبه تبرأ منك فيكون بذلك ابناً عاقاً؛ لأنه عند السراء شكر وعند الضراء كفر.

الابن صغيراً يكون باراً بأبويه؛ لأن أباه ينفق عليه وأمه ترعاه حتى إذا كبر الابن وكبر الأب فصار الأب بغير عمل وصار الابن هو الذي يدخل عليه المال عندها يظهرّ الولد البار من العاق؛ لذلك قال الله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: 23].

قال المفسرون: اقتصر عدم قول الـ ﴿أُفٍّ﴾ على كبر الأب والأم؛ لأن العادة جرت بأن الشباب والأطفال الصغار لا يقولون لآبائهم أف لحاجتهم إليهم لكن عند الكبر يظهر البر الصحيح.

والله من حكمته أنه يبتلي المؤمنين؛ ليستخرج عبودية أوليائه في السراء والضراء فيكونون عباداً لله في السراء والضراء.

لو تخيلنا صورة فوتوغرافية لرسول الله ومن حوله الصحابة لوجدناهم كلهم جرحى وبعضهم فقئت عينه وبعضهم قطعت يده أو رجله... وبجوارهم سبعين شهيداً وقريش تفرح وترقص فما كون موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن قال:

عَن رِفَاعَةَ الزُّرَقِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: **لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَفَأَ الْمُشْرِكُونَ، قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي»، فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلَا هَادِيَ لِمَا أَضْلَلْتَ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ، اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ وَالْأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ، اللَّهُمَّ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ، وَالْفُسُوقَ، وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ، اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ**

يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَهَ الْحَقِّ» [الإمام أحمد والحاكم].

في هذا البلاء وهذه الأزمة نحن عبيد لله تعالى في سرائنا وضرائنا ولا يمنعنا هذا الضيق والضرر الذي نزل بنا أن لا نمدح رب العالمين ولا نثني عليه بما هو أهله.

قال أهل التربية الروحية: **القابض الباسط اسمان من أسماء الله تعالى ولكل من الاسمين تجل، لكن تجلي القبض** (الذي هو ضيق وشدة وعسر وأن تصلي فترى قلبك مقبوضاً، وتذكر وعينك جافة، وتقرأ القرآن وبدنك لا يقشعر...)، **أعلى من تجلي البسط** (الذي هو انشراح الصدر، ورقة القلب، ودمع العين، والشعور بالأنس، والسعادة بالصلاة)؛ **لأن من كان في حال البسط فإنه يعبد الله ليدخله المقام ولعله يقرأ القرآن لأجل السرور لا التعبد، ويذكر الله لأجل انشراح الصدر، ويصلي لأجل أن يعطيه الله المال، لكن ليس من أحد يعبد الله لأجل القبض.**

أما الذي يعبد الله وهو في مقام القبض فهو مخلص في عبادته لربه فمع القبض والقلة والضائقة والاحتياج والألم والهزيمة فهو يعبد الله عز وجل.

والله يوقع أولياءه في هذه الضراء ليستخلص عبوديتهم في الضراء كما استخلصها في السراء.

3- ويتم ابن القيم بقوله: ((...**ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائماً، وأظفرهم بعدُوِّهم في كل موطن، وجعل لهم التمكين والقهر لأعدائهم أبداً لطغت نفوسهم، وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصر والظفر لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق، فلا يُصلِح عبادَه إلا السراء والضراء، والشدة والرخاء، والقبض والبسط، فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته، إنه بهم خبير بصير.**)).

قال لي أحد الإخوة: كان لوالدي متجراً في السوق التجاري في الشام القديمة، ولديه بيت في منطقة المهاجرين، وسيارة في وقت لم يكن في الشام إلا بضع سيارات.

وقد كان أبي مع كبر سنه يخرج -أحياناً- من المتجر إلى سوق الخضار ليشتري الخضار ثم يسير إلى المهاجرين على الأقدام في وقت الظهر، فكنت أتساءل في نفسي لماذا يفعل أبي ذلك مع أنه كان بإمكانه أن يطلب من أجرائه أن يفعلوا هذا الأمر، أو أن يأخذ أجيراً ليحمل معه الأغراض، أو أن يأخذ معه السيارة؟!

فسألت أبي عن هذا العمل وطلبت منه أن يكلفني بذلك أو يكلف أحد الأجراء، فقال لي: يا بني إني في كل مرة أرى نفسي عَلَتْ وتكبرت واعتدَّت أقوم بتأديبها.

فهذه سُنة العقلاء بتأديب النفوس، وسُنة ربنا بين عباده.

الرب كلمة مشتقة من التربية، فهو يربي عباده، ولو جعل الله العباد في انتصار ورفعة وعطاء وزيادة دائمة لعلت نفوسهم وشمخت وتكبرت، وأول معصية عصي الله تعالى بها هي الكبر عندما تكبر إبليس و﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: 12].

قال العلماء: **من كانت معصيته من ذنب فارجوا له التوبة ومن كانت معصيته من كبر فلا يرجى له التوبة.**

قال مجاهد: (**لا يتعلم العلم مستحي ولا مستكبر**) [اسم باب في صحيح البخاري].

فالمتكبر يرى نفسه أعلم العلماء وأصلح الصالحين فلا يرى من حاجة للتعليم.

ويتم ابن القيم بقوله: ((...**ومنها: أنه سبحانه هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة، فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها**)).

عَنِ الْأَصْبَغِ بْنِ نُبَاتَةَ، قَالَ: **دَخَلْتُ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ نَعُودُهُ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ؟ قَالَ: أَصْبَحْتُ بِحَمْدِ اللهِ بَارِئًا. قَالَ: كَذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ. ثُمَّ قَالَ الْحَسَنُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَسْنِدُونِي. فَأَسْنَدَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى صَدْرِهِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ جَدِّي رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يُقَالُ لَهَا شَجَرَةُ الْبَلْوَى، يُؤْتَى بِأَهْلِ الْبَلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا يُرْفَعُ لَهُمْ دِيوَانٌ، وَلَا يُنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ، يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْأَجْرُ صَبًّا»** ، **وَقَرَأَ**: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10] [الطبراني].

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَوَدُّ أَهْلُ العَافِيَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ البَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالمَقَارِيضِ**» [الترمذي].

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

والحمد لله رب العالمين.